رسالة ابن أبي زيد
أهميتها ـ انتشارها ـ أسباب التأليف

الدكتور خليفة بابكر الحسن

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

الحديث عن الرسالة يستوجب ـ باديء ذي بدء ـ التعريف بمؤلفها وبالعصر الذي عاش فيه وتكوينه العلمي والروافد التي ساعدت في ذلك التكوين ومن ثم الحديث عن آثاره العلمية بطريقة تصل الحديث بالرسالة التي هي محل البحث والدراسة . .

مؤلف الرسالة: هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد[1] بن إسحاق ابن سعيد بن بلال المشهور بابن أبي زيد القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان[2] التي كانت موئل سكنه ومحل إقامته وإلاّ فهو نفزي النسب حيث إنه ينتسب إلى أسرة من «نفزة» من أعمال الأندلس[3] ومن ثم لقب بالنفزي كما لقب بالقيرواني وان كان لقب القيرواني قد غلب عليه، فقيه مالكي ضليع ولد سنة 310 هـ وتوفي سنة 386 هـ كان آية في مذهب مالك في زمنه حتى لقب بمالك

---

(1) أبو زيد كنية أبيه ـ هذا وبعض المؤرخين يذكر عبد الرحمن بعد أبي زيد ـ راجع رسالة الدكتور خالد المذكور عن ابن أبي زيد القيرواني ص 3 ـ مخطوطة.

(2) مدينة مشهورة بتونس كانت في تاريخها الأول أعظم مدينة في أفريقيا وقاعدة من قواعد الإسلام فيها يؤمها طلاب العلم والفقه من كل صوب وحدب كما أنها كانت العاصمة السياسية لثلاث دول من أشهر دول المغرب الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين أسسها سنة خمسين من الهجرة الشريفة عقبة بن نافع والي عمرو بن العاص المرجع السابق ص 9.

(3) دائرة المعارف الإسلامية ص 80 المجلد الأول.

الصغير[1] ووصفه كتاب السير والتراجم بأنه: إمام المالكية في وقته، وقدوتهم وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله[2] اشتهر بالدفاع عن المذهب المالكي، والذب عنه كما كان صالحاً تقياً، ورعاً، عفيفاً، يمتاز بسعة الفقه وعلو الكعب فيه مع وفرة في الرواية ومحصول من المحفوظ يسعفه عند الفتوى تزين ذلك كله ملكة تعبيرية فذة أكسبته فصاحة اللسان وملَّكته ناصبة البيان.

عاش هذا الإمام المالكي الجليل في القرن الرابع الهجري ـ كما يعكس ذلك تاريخ ميلاده ووفاته ـ وهو قرن بدأ الوهن فيه يدب في أوصال الدولة الإسلامية كصدى طبيعي لضعف بني العباس وانغماسهم في الترف والرفاهية ونشوب الفتن بينهم بطريقة أدت إلى انقسام الدولة إلى دويلات صغيرة حيث قامت دولة بني بويه في فارس وبسطت الدولة الأخشيدية يدها على مصر والشام، أما الأندلس فكانت تحت سلطان الأمويين وكان نصيب الفاطميين أفريقيا والمغرب[3].

وقد عاش ابن أبي زيد الفترة الأولى من حياته في القيروان في ظل دولة العبيديين وهي دولة شيعية أسسها أبو عبد الله الشيعي: الحسن بن أحمد بن محمد ابن زكريا اليمني، وتسميتها بالعبيدية نسبة إلى أول خلفاء هذه الدولة أبو محمد عبد الله بن الحسن بن علي الذي يتصل نسبه بالإمام علي رضي الله عنه والملقب بالمهدي، وقد استمر حكم هذه الدولة للقيروان من ٢٩٧ هـ إلى سنة 361 هـ وهو التاريخ الذي غادر فيه آخر خلفائها وهو المعز لدين الله الفاطمي المغرب إلى مصر[4].

اتسمت هذه الفترة من حياة القيروان بصراع مرير بين فقهاء المالكية والسلطة

---

(1) طبقات الفقهاء للشيرازي ص 160 طبعة الرائد العربي بيروت دائرة المعارف الاسلامية ص 80 وما بعدها.

(2) ترتيب المدارك للقاضي عياض 6 ـ 215، 216 طبعة المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية.

(3) راجع رسالة الدكتور خالد المذكور عن ابن أبي زيد القيرواني ص 20، 21.

(4) المرجع السابق ص 28 واعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص 44 طبعة النجاح بتونس، ومقدمة كتاب الجامع تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ ص 15 طبعة مؤسسة الرسالة.

الشيعية التي أظهرت مذهبها جهاراً فاستفزت مشاعرهم، بل وأكثر من ذلك فقد لاحقتهم وحرمتهم من تدارس مذهبهم في الأماكن العامة والمساجد بطريقة أدت إلى الصدام بينهم وبين تلك السلطة باشتراكهم في ثورة أبي يزيد وحماستهم لها[1].

إلا أن أبا يزيد غدر بهم وعرضهم للقتل فانتهت ثورته بالهزيمة ويحكي التاريخ أن فقيهنا الجليل ابن أبي زيد كان واحداً من الذين اشتركوا في تلك الثورة سنة 332 هـ وكانت سنه يومذاك ثلاثاً وعشرين سنة[2].

ولم تهدأ تلك الفتنة إلا في ظل حكم الصنهاجيين وبذلك عاد فقهاء المالكية إلى صفائهم، والتفرغ لخدمة مذهبهم.

هذا فيما يتصل بالحالة السياسية في ذلك العصر، أما الحالة الثقافية فيه فقد كانت في عموم أمرها ـ في العالم الإسلامي ـ على مستوى كبير من الازدهار؛ ذلك أن العلوم المختلفة كان تدوينها قد استقر مثل علم الكلام والتفسير والحديث والقراءات كما أن المذاهب الفقهية كانت قد اكتملت ودونت أصولها[3].

وفي المغرب كانت الثقافة الفقهية مناداحة ميسورة وهي ثقافة يمتد تاريخها الى الفقهاء العشرة الذين أرسلهم خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ إلى المغرب فأشاعوا الرشد وبثوا العلم وعلموا الحلال والحرام وحرصوا على الأمن والتآخي والمؤاساة وبثوا دعوة الإسلام بين البربر وضربوا لهم مثل العدل والحق والرحمة والسيرة الصالحة[4].

---

(1) ترتيب المدارك للقاضي عياض 3 ـ 318 ومقدمة كتاب الجامع ص 16، 17 ورسالة الدكتور خالد المذكور ص 38 وما بعدها، وثورة أبي يزيد هي الثورة التي قادها ضد العبيدين مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث وأصله كن زنانة من نواحي الأندلس ومذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان انتهت ثورته على العبيدين بالفشل والهزيمة لأنه غدر بفقهاء المالكية الذين أخلصوا له في قتال العبيديين.

(2) اعلام الفكر الإسلامي ص 47.

(3) راجع رسالة الدكتور خالد المذكور ص 37.

(4) اعلام الفكر الإسلامي ص 11 والفقهاء العشرة هم:

وتأكدت تلك الثقافة أكثر حينما نفر جمع من فقهاء ومحدثي المغرب إلى المشرق في طلب العلم منهم علي بن زياد[1] وعبد الرحيم بن أشرس[2] وبهلول ابن راشد[3] وعبد الله بن فروخ[4] فكونوا حجر الأساس الراسي في هيكل الفقه الإسلامي في أقطار المغرب العربي[5].

والمذهب الذي أخذه أولئك الأعلام هو مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ وأبرزهم في ذلك علي بن زياد الذي قال عنه أصحاب مالك الأولون: «ما طرأ علينا طارىء من البلدان كشف مالكاً عن الأصول كشف مالك بن زياد[6]: وعنه أخذ أسد بن الفرات وسحنون[7].

= 1 ـ اسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي والي القيروان. 2 ـ عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني. 3 ـ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي. 4 ـ أبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي. 5 ـ اسماعيل بن عبيد مولى الأنصار. 6 ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخي. 7 ـ جعيل بن هاعان الرعيني. 8 ـ موهب بن حي المعافري. 9 ـ طلق بن حابان الفارسي. 10 ـ حيان بن أبي جبلة القرشي العبدري.

(1) هو علي بن زياد أبو الحسن التونسي العبسي ثقة، مأمون، خيار ورع سمع من مالك والثوري والليث بن سعد وغيرهم لم يكن في عصره من أهل افريقية مثله، روى عن مالك الموطأ وكتباً أخرى توفي 183 هـ. الديباج المذهب ص 192 طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(2) قيل اسمه العباس وقيل عبد الرحمن ويكنى بأبي مسعود عربي انصاري، ثقة، فاضل سمع من مالك وروى عن ابن القاسم ـ لم يذكر صاحب الديباج تاريخ وفاته ـ الديباج ص 152، 153.

(3) هو أبو عمرو البهلول بن راشد كان ثقة مجتهداً ورعاً صاحب علم كثير سمع مالك، وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زياد والليث بن سعد (ت 182 هـ، طبقات علماء افريقية للخشني 52 ـ 61.

(4) هو عبد الله بن فروخ الفارسي بن شيوخ أهل افريقية رحل في طلب العلم الى المشرق فلقي مالكاً وأبا حنيفة، وكان بينه وبين الإمام مالك مكاتبة (ت 175 هـ). طبقات علماء افريقية للخشني ص 34 ـ 37.

(5) إعلام الفكر الإسلامي ص 24.

(6) المرجع السابق ص 25.

(7) أسد هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان أصله من نيسابور توفي سنة 213 هـ. الديباج 1 ـ 305، 306 وسحنون هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن =

وقد بذل هذان الفقيهان جهداً خارقاً في خدمة المذهب المالكي على صعيد العالم الإسلامي كله وليس على مستوى المغرب وحده حيث أكثرا من الترحال والتنقل في سبيل تدوين المذهب المالكي، أما أسد بن الفرات فقد رحل بعد أخذه عن علي بن زياد إلى المدينة وأخذ عن الإمام مالك ثم رحل الى العراق فاتصل بالصاحبين أبي يوسف ومحمد، وعنهما أخذ منهج فرض الصور الفقهية وتشقيقها وهي طريقة ضاق بها الإمام مالك حينما أكثر أسد منها فقال له: «هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق[1]. وختم رحلته بمصر التي التقى فيها بأصحاب الإمام مالك في المدرسة المصرية ابن وهب[2] وابن القاسم[3] وأشهب[4] وابن الحكم[5] وكان أكثر أخذه عن ابن القاسم حيث عرض عليه اسئلته ومناقشاته فأجابه ابن القاسم عنها وقد انتج هذا المجهود كتاب «الأسدية» إلا أن منهج العراقيين الذي ضاق به الإمام مالك في بداية الأمر بدا واضحاً فيها الأمر الذي حدا بسحنون أن يعود بها مرة ثانية لابن القاسم لضبط وتصحيح ما أخذه عن أسد وتوثيقه بالأحاديث والأخبار فكانت «المختلطة» التي عاد عليها بالتنقيح مرة أخرى حيث كانت «المدونة» التي تعد مرجعاً أساسياً في المذهب المالكي اعتمدت عليه - بعد ذلك - كل التصانيف في

= بكار بن ربيعة التنوخي الملقب بسحنون لحدته في المسائل توفي سنة 240 هـ. الديباج 2 - 30 - 40.

(1) أنظر اعلام الفكر ص 26.

(2) هو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي صحب الإمام مالكاً عشرين سنة وحفظ منه وتفقه بمذهبه توفي بمصر سنة 197 هـ شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف ص 58، 59.

(3) هو عبد الرحمن بن القاسم تتلمذ على الإمام مالك عشرين عاماً حتى نضج فقهه، وأخذ الحديث عن مسلم بن خالد الزنجي كان مجتهداً وهو من الإمام مالك بمنزلة أبي يوسف من أبي حنيفة توفي سنة 163 هـ. المدخل الفقهي للكاتب وآخرين ص 271.

(4) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري صحب مالكاً وأخذ عنه كما تتلمذ على الإمام الليث بن سعد توفي سنة 204 هـ. المدخل الفقهي للكاتب وآخرين ص 271.

(5) هو عبد الله بن عبد الحكم سمع صاحب مالك الموطأ ثم روى عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب كثيراً من فقه مالك توفي سنة 210 هـ. المدخل الفقهي للكاتب وآخرين ص 271.

هذا المذهب الفقهي العظيم[1]. وفي القيروان كان الفقه المالكي امتداداً لذلك الجهد الرائع الخلاق الذي بدأه مؤسسو المدرسة المالكية في المغرب إلا أن ظروف الملاحاة والصراع السياسي الذي حدث ترك أثره ـ بلا شك ـ عليه حيث عطل النمو والحماسة التي بدأ بها الأولون وصرف الفقهاء عن الإنتاج الخصب وشغلهم ببعض الجدليات مع الفرق المناوئة لهم[2]. ومع ذلك كله كان فقيهنا ابن أبي زيد القيرواني ذا دور رائد في خدمة المذهب المالكي، وفياً له، دائم الدفاع والذب عنه وهو أمر سوف يتضح من خلال آثاره الفقهية التي يبدو منها واضحاً حرصه على وصل الحركة الفقهية في المغرب.

تكوينه الفقهي:

كان تكوين ابن أبي زيد الفقهي تكويناً علمياً ممتازاً يتضح ذلك من كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم وتعدد المنابع التي استقى منها[3]، ويبدو أن دافعه لذلك

(1) اعلام الفكر الإسلامي ص 28.

(2) أعلام الفكر الإسلامي ص 46.

(3) المرجع السابق والصفحة، هذا ومن الشيوخ الذين اخذ عنهم بالقيروان أبو عثمان بن سعدون بن أحمد الخولاني كان من الفقهاء العابدين الزهاد ذوي التأثير على النفوس توفي سنة 325 هـ.

ـ أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن الحداد أخذ عنه الحديث إذ كان عبد الله هذا كثير الرواية توفي سنة 320 هـ.

ـ أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد كان عالماً ورعاً زاهداً كثير البكاء والخشية، امتحن وعذب أيام بني عبيد كان ذا تأثير بيّن في ابن أبي زيد وقد رثاه بقصيدة حين مات توفي سنة 333 هـ.

ـ أبو الفضل الممسى كان فقيهاً جيداً في مذهب مالك كما كان صاحب موقف من بني عبيد إذ أفتى بكفرهم كما خرج لقتالهم توفي سنة 333 هـ.

ـ أبو سليمان ربيع القطان كان عالماً بالقرآن وتفسيره وعلم الباطن والزهد توفي سنة 320 هـ.

ـ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي صاحب طبقات علماء أفريقية كان مشهوراً بالثقة والصلاح توفي سنة 333 هـ.

ـ سحنون بن أحمد بن بلال التنوخي كان شيخاً صالحاً فقيهاً فاضلاً حدث عنه وعن أبيه =

التكوين الممتاز فترة التحدي التي عاشها والإستفزاز الذي بدا من العبيديين حيال المذهب المالكي والمذاهب السنية بعامة؛ إذا ألهب ذلك الموقف المعادي الحماسة في ابن أبي زيد ودفعه للحرص على طلب العلم ليذود عن المذهب المالكي ويدافع عنه وهو أمر اشتهر به كما يتضح من خلال تراجمه وسيرته، روى أن محمد بن أبي زيد وأبو محمد بن التبان كانا يأتيان إلى شيخهما أبي بكر بن اللباد في خفية وربما حملا من الكتب في أوساطهما وحجزتهما حتى تبتل بأعراقهما خوفاً من بني عبيد أن ينالوهما بمكروه[1].

= توفي سنة 343 هـ.

ـ ابن الحجاج أبو محمد عبد الله بن هاشم بن مسرور التجيبي كان عالماً ورعاً صالحاً روى عنه ابن أبي زيد الواضحة توفي سنة 346 هـ.

ـ أبو عبد الله محمد بن مسرور العسال عالم جليل مشهور بالعلم والصلاح توفي سنة 346 هـ.

ـ ومن شيوخه بالأندلس:

ـ أبو عثمان سعيد بن مجلون الأموي توفي سنة 346 هـ.

ـ ابن موسى عيسى بن سعادة السلجماسي توفي سنة 355 هـ.

ـ ومن شيوخه بالحجاز:

ـ ابن الأعرابي أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر البصري كان شيخ الحرم المكي في زمنه كثير العبادة والزهد توفي سنة 340 هـ.

ـ ومن شيوخه بالعراق:

ـ أبو عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن حماد القاضي توفي سنة 329 هـ.

ـ ابن الوراق المروزي أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الجهم بن حبيش.

ـ أبو بكر الأبهري محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح التميمي الأبهري رئيس المالكية في زمنه ببغداد توفي سنة 375 هـ.

ـ راجع في شيوخه:

1 ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض 6/ 216، 217.

2 ـ الديباج المذهب لابن فرحون 137.

3 ـ مقدمة كتاب الجامع 25 ـ 28.

4 ـ رسالة الدكتور خالد المذكور 75 ـ 113.

(1) معالم الإيمان للدباغ نقلاً عن الدكتور خالد المذكور ص 75.

وقد كان شأنه في أخذ العلم شأن سلفه الأوائل علي بن زياد وأسد بن الفرات وسحنون إذ ضم إلى شيوخه من القيروان شيوخاً آخرين من فاس والأندلس عند مجيئهم للقيروان وهم في طريقهم للحج كما رحل هو نفسه الى المشرق لأداء فريضة الحج وفي طريقه التقى ببعض شيوخ مصر من المالكية وأخذ عنهم ولم يفته مع ذلك أن يأخذ عن شيوخ الحجاز والعراق إبّان وجوده في مكة التي وصلها حاجاً هذا فضلاً عن أن شيوخه كانوا مزيجاً من العالمين بالفقه والحديث واللغة والأدب وأهل الزهادة، والورع وبذلك كان تكوينه العلمي تكويناً موسوعياً مستوعباً أهله بحق لأن تجتمع فيه نفائس الآثار وان يتلاقى في كنفه متباعد الأقطار»[1].

آثاره العلمية:

انعكس التكوين العلمي الممتاز لابن أبي زيد القيرواني في كثرة انتاجه وخصوبته وتعدد نواحيه؛ إذ تذكر التراجم أن له كتباً في العقيدة والمواعظ والنصح والرقائق وعلوم القرآن والحديث كما كان شاعراً رثى شيوخه بقصائد تعد من قلائد الشعر العربي الرصين[2].

ومن أبرز مؤلفاته في الفقه «النوادر والزيادات على المدونة» و «مختصر المدونة» وكتاب «الرسالة» التي هي محل الحديث[3].

هذا وقبل الحديث عن الرسالة لا بد من أن نشير إلى أمر يبدو من خلال مؤلفاته الفقهية وهو ابداعه وتجديده في المذهب المالكي بصنيعه في النوادر والزيادات التي جمع فيها ما تفرق في كتب المذهب المالكي قبله مع إضافته للزيادات التي هي عبارة عن الأحدوثات التي حدثت في عصره وتنزيلها في ضوء ما جاء في تلك الكتب[4]، ولهذا وصف بأنه جامع مذهب مالك وشارح أقواله[5].

(1) اعلام الفكر الإسلامي ص 47.
(2) انظر طرفاً من شعره في مقدمة كتاب الجامع ص 67 وفي رسالة الدكتور خالد المذكور ص 83.
(3) تصل مؤلفاته التي أوردتها بعض تراجمه إلى ثلاثين مؤلفاً. راجع مقدمة كتاب الجامع ص 27، 28 والديباج المذهب 137.
(4) أعلام الفكر الإسلامي ص 48.
(5) الديباج المذهب 134.

ولتجديده وابداعه هذا أيضاً حاول كثير من المؤلفين مجاراته فلم يبلغوا مداه مع فضل سبقه وتعرضه للمعاناة لأنه مهد السبيل وراد الطريق، كما يتضح أيضاً من خلال مؤلفاته الفقهية رجوعه بالفقه المالكي إلى صفائه العلمي وتخليصه من أوشاب الجدل والايفال في النظريات بما امتاز به من دقة النظر التي مكنته من أن يضع كل حكم في نصابه مع ضبطه لأركانه وشروطه فكان بذلك عماداً متيناً لدور التطبيق في المذهب المالكي وازى بصنيعه هذا القاضي أبا بكر الأبهري بالعراق وابن عبد البر في الأندلس من فقهاء المالكية، والكرخي والجصاص والسمرقندي من فقهاء الحنفية[1].

وبذلك كله استحق ابن أبي زيد أن يكون واحداً من المجتهدين في المذهب المالكي[2] الذين حافظوا على فقهه نضراً وجهدوا في وصل نسقه وقوة دفعه بعزيمة واخلاص وتجرد ونية صادقة.

الرسالة أسباب التأليف وتاريخه:

ألف الشيخ ابن أبي زيد القيرواني الرسالة في فترة مبكرة من حياته إذ ألفها وكان عمره سبع عشرة سنة وكان ذلك في سنة 327 هـ[3] بطلب من شيخه محرز ابن خلف[4] الذي كان يشتغل بتعليم القرآن للصغار وينهض بمهمة تأديبهم وتربيتهم وتنشئتهم ومن ثم نزع إلى أن يشفع القرآن بالفقه فطلب إلى ابن أبي زيد أن يؤلف الرسالة التي تحتوي على ما يحتاجه النّاشِئة من أحكام أولية.

فاستجاب ابن أبي زيد لذلك فكانت الرسالة.

ولا شك أن هذا المسلك من محرز بن خلف وابن أبي زيد ينم عن نظرة

---

(1) اعلام الفكر الإسلامي ص 47.

(2) رسالة الدكتور خالد المذكور عن ابن أبي زيد ص 285.

(3) راجع رسالة الدكتور خالد المذكور ص 201 ومقدمة كتاب الجامع ص 50، 51 وهناك رواية أخرى أن الذي طلب تأليف الرسالة هو اسحق بن ابراهيم بن محمد السبائي لكن الراجح ما ذكر في متن البحث.

(4) هو أبو محفوظ أو أبو محمد محرز بن خلف بن أبي رزيق بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل بن أبي بكر الصديق كان صالحاً عابداً يقوم على التدريس بمدرسته توفي سنة 413 هـ.

متقدمة يتمتع بها الشيخان في مجال التربية والتعليم وإرساء مناهج التعليم بصورة متدرجة لحصول الفائدة المرجوة.

هذا ولا غرو في ذلك ولا عجب فقد كان الرجلان من ذوي الصلاح الذين تأصلت في نفوسهم نزعة الإصلاح والمبادرة إلى فعل الخير بنية صادقة، وقلب سليم.

وقد انعكس هذا التصرف الحسن في تأليف الرسالة في الشهرة العظيمة التي أصابتها إذ تلقتها سائر البلاد الإسلامية بالقبول والترحاب وعم شيوعها العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد افريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وأكثر من ذلك فإن الناس تنافسوا في اقتنائها حتى كتبت بالذهب وبيعت أول نسخة منها ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً[1] كما عدها القرافي من جملة خمسة كتب عكف عليها المالكية في المشرق والمغرب[2] ووصفت بأنها باكورة السعد وزبدة المذهب[3] بل ساد لدى الناس اعتقاد ببركتها فقالوا: «إن من حفظها وعني بها وهبه الله تعالى ثلاثاً أو واحدة من الثلاث: العلم والصلاح والمال الطيب»[4].

ومن فرط ما نالته الرسالة من اهتمام وما لاقته من شهرة أن أبا بكر بن زرب الفقيه الأندلسي لما وصلته النسخة التي بعث بها ابن أبي زيد إليه أخفاها ولم يظهرها وأخذ في تأليف كتاب «الخصال» الذي تأسى فيه خطواتها لينال مثل ما نالته من شهرة وبعد صيت بين الناس ولكنه لم يفلح في ذلك حيث إن الرسالة كانت قد سبقت إلى النفوس فاسرتها وإلى القلوب فتمكنت منها، وقد حاول آخرون مثل محاولة ابن زرب فكان نصيب ما ألفوه نصيب كتاب الخصال؛ إذ ظلت الرسالة على مكانتها في الشهرة والتداول بين الناس فأخذت مكانها ككتاب بارز بين أمهات الكتب الفقهية الأمر الذي أغرى كثيراً من العلماء بالعكوف على تدريسها

(1) رسالة الدكتور خالد المذكور ص 204.

(2) الذخيرة 1/ 34 ومقدمة الجامع ص 52.

(3) مقدمة الجامع ص 53.

(4) المرجع السابق ص 54.

وحفظها والإنكباب عليها، وبذيوعها وشهرتها اشتهر ابن أبي زيد القيرواني وطار ذكره في الآفاق عالماً مالكياً محفوظ الذكر في التاريخ منذ تأليفه للرسالة إلى يومنا هذا.

أسباب شهرة الرسالة:

تعود أسباب شهرة الرسالة إلى الأمور التالية:

أولاً: كانت العمدة في تعليم الناشئة الأحكام ألتي يحتاجونها وهم في بداية حياتهم ليسلم تكوينهم ويصح اعدادهم، وبذلك سدت فراغاً مهولاً كان يحسه الناس قبلها حيث إن كتب المذهب المالكي التي سبقتها كانت كتباً للخاصة يغلب عليها التفريع والتفصيل في بحث المسائل سواء كان ذلك على مستوى علم الكلام أم علم الأخلاق أو العقيدة فكانت بذلك أول مختصر ظهر في المذهب المالكي بعد التفريع لابن الجلاب لأنه لم يوجد في ذلك الزمن إلا الأمهات الكبار فسمى التفريع مختصراً بالنسبة لها[1].

كما أنها كانت من هذه الجهة بداية للتأليف على هذا النمط الذي يناسب الصغار، ويسد حاجتهم ومن ثم اعقبتها كتب كثيرة كالعزية والعشماوية وغيرهما.

ثانياً: كانت الرسالة جامعة لعقيدة الفقه والآداب وبذلك سهلت على الناشئة تعلم كل هذه الأحكام مجتمعة في ديوان واحد فكان هذا عاملاً من العوامل التي ساعدت في شهرتها.

ثالثاً: ما امتاز به كاتبها ابن أبي زيد من وضوح العبارة، وتركيزها ودقتها في اعطاء المراد وهي في ذلك لا تحتاج الى كبير شرح أو توضيح.

رابعاً: التكوين العلمي والنفسي والذهني لابن أبي زيد القيرواني جعل الرسالة مؤهلة لتلك الشهرة؛ ذلك ان ابن أبي زيد كان يعرف ماذا يريد ويدرك ما يطمح إليه من هدف محدد هو تنشئة أبناء المسلمين تنشئة سوية صالحة، وتحديد الهدف دائماً عامل من عوامل النجاح الأكيد.

(1) الجامع 53، 54.

خامساً: القبول الذي حظي به ابن أبي زيد في عصره كان سبباً من الأسباب التي أدت إلى شهرة الرسالة؛ ذلك أن شهرتها بدأت تتأكد في عصره وحال حياته إنعكاساً لثقة الناس فيه وفي دينه وورعه واخلاصه قال القابسي: «هو إمام موثوق به في ديانته وروايته»(1). وقال أبو عبد الله الميورقي «اجتمع فيه العلم والورع والفضل»(2)، وقال الداودي: «كان سريع الانقياد والرجوع إلى الحق»(3).

ولا شك أن رجلاً هذه صفاته وتلك خلاله لا بد من أن يصيب نجاحاً في جهده، وبركة في سعيه.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك خفة مؤونة الرسالة إذا أراد الناس حملها أو نسخها أو النظر فيها فإن خفة المؤونة تشجع في تلك الأحوال(4).

شروح الرسالة:

قبل أن نمضي قدماً في الحديث عن الشروح التي وردت على الرسالة لا بد من ان نشير إلى حقيقة علمية عصرية هامة تعكس مكانة الرسالة، وإهتمام الأوساط الأكاديمية العالمية بها وهي ترجمتها إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية حيث طبعها رسل وعبد الله المأمون السهروردي طبعة معها ترجمة انجليزية وتعليقات وتراجم ومقدمة وكان ذلك في لندن سنة 1906 كما ترجمها المستشرق فانيان الى الفرنسية في باريس سنة 1914(5).

أما شروحها باللغة العربية فهي كثيرة ومنبئة بشكل قاطع بأهمية الرسالة ودورها المقدر في الفقه الإسلامي، كما أن ما طبع من تلك الشروح أدى دوره في خدمة الحقيقة العلمية على مستوى التعليم والتدريس، وعلى مستوى البحث والقضاء في الأقطار الإسلامية التي تنتهج مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك بن

---

(1) ترتيب المدارك 6/ 216.
(2) المرجع السابق 6/ 216.
(3) المرجع السابق والصفحة.
(4) مقدمة كتاب الجامع ص 54.
(5) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص 80 ومقدمة كتاب الجامع ص 261.

أنس بخاصة وفي غيرها من الأقطار الإسلامية بعامة.

وقد بدأ التصدي لشرح الرسالة عند المالكية في وقت مبكر لا يعدو العشر سنوات من تأليفها ـ فيما أحسب ـ ذلك أن أول شرح لها كان شرح أبي بكر محمد بن موهب المقبري تلميذ ابن أبي زيد القيرواني الذي توفي سنة 406 هـ وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أن أول شارح لها هو القاضي عبد الوهاب البغدادي[1].

لكن الصحيح أن أول شارح لها هو المقبري لأن القاضي عبد الوهاب توفي سنة 422 هـ[2].

وبهذا يكون القاضي عبد الوهاب هو الشارح الثاني للرسالة وشرحه لها كان شرحاً كبيراً بلغ نحو ألف ورقة وسماه «المعونة في شرح الرسالة».

وبعد ذلك توالت الشروح على الرسالة حتى بلغت الثماني وعشرين عند بروكلمان[3] والثلاثين عند أصحاب دائرة المعارف الإسلامية[4] وما يربو على الستة وأربعين شرحاً عند الدكتور خالد المذكور في رسالته عن ابن أبي زيد القيرواني[5].

ومن العسير أن نتتبع في هذه العجالة عرض كل تلك الشروح إلا أنه من

---

(1) شرح الرسالة للقلشاني 1/ 3 نقلاً عن الجامع ص 56. والقاضي عبد الوهاب هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك الثعلبي البغدادي الفقيه والأصولي المالكي المجود، والأديب الشاعر صاحب الرحلات الكثيرة والتنقل في العالم الإسلامي لطلب الرزق ونشر العلم الذي مدحه أبو العلاء المعري حين التقى به وهو في طريقه إلى مصر بعد خروجه من بغداد ـ بقصيدة منها:

والمالكي ابن نصر زار في سفر … بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكاً جدلاً … وينشر الملك الضليل إن شعرا

(2) راجع مقدمة الجامع ص 56.

(3) مقدمة الجامع ص 57.

(4) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص 80.

(5) راجع المبحث الثالث «شراح الرسالة ومقيدوها» من ص 224 ـ 254.

اللازم أن نتعرض إلى سماتها والجوانب التي ركزت عليها كل طائفة منها من مباحث الرسالة وموضوعاتها.

وفي ذلك نجد أن الشروح التي يشير المترجمون لها، بعضها يدخل في باب الشروح المباشرة المتعارف عليها التي غطت كل موضوعات الرسالة، وبعضها اقتصر على جوانب من الرسالة وبعضا انصبّ إهتمامه على إسناد الرسالة وهكذا.

ولعل هذا الوضع يسمح لنا بأن نسميها مؤلفات على الرسالة ونقسمها إلى الطوائف التالية:

1 ـ طائفة التقييدات وهي عبارة عما يتلقفه التلاميذ من شيوخهم وهم يعرضون لشرح متن الرسالة، وتوضيح مسائلها، وبسط قضاياها كتقييد تلامذة القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزويلي (ت 719 هـ) وأبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي (744 هـ) وأبي سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي المعروف بابن أبي حيـى (ت 748 هـ) وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التميمي الكرسوطي الفاسي وأبي الحجاج يوسف ابن عمر الأنفاسي (ت 761 هـ) وأبي عمران موسى بن محمد بن محمد بن مصطفى العبدوسي (ت 776 هـ).

ويرى بعض العلماء أن هذه التقييدات لا ترقى إلى مستوى التأليف المعتمد في الفتوى[1].

2 ـ أن طائفة من هذه المؤلفات اقتصرت على شرح جانب من الرسالة ولم تتعقب كل أبوابها وموضوعاتها بالشرح كشرح الخفاف (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الأشبيلي) الذي اقتصر فيه على جانب العقيدة والعلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن قاسم بن جوسي (ت 1182 هـ) الذي أشار إلى أن له شرحاً لجانب العقيدة فقط من الرسالة[2].

وأبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد عبد الله البابري الأشبيلي القاضي (ت

(1) راجع مقدمة الجامع ص 60.

(2) راجع مقدمة الجامع ص 51.

518 هـ) الذي يشير صاحب شجرة النور الزكية أنه شرح صدر الرسالة[1].

وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق اليزليطيني القيرواني المعروف بحلولو (ت 875 هـ)[2].

3 ـ أن بعض ما كتب على الرسالة كان تلخيصاً لها ولم يكن شرحاً مثل صنيع أبي جعفر أحمد بن الحسن الكلاعي المعروف بابن الزيات (ت 728 هـ).

4 ـ أن طائفة من شروح الرسالة ركزت على الإهتمام بإسناد مسائلها إلى الرسول ﷺ وإلى الصحابة رضوان الله عليهم كشرح أبي بكر الأبهري (ت 375 هـ) الذي سماه «مسلك الجلالة في مسند الرسالة»[3].

وشرح أبي يعقوب يوسف بن موسى بن عيسى الحسني السبتي (توفي آخر المائة السابعة: الإفادة الكبرى والصغرى اللذان مال فيهما إلى سرد أوفر.

كما أن بعضهما عمل على تخريج أحاديث الرسالة من ذلك مؤلف الحافظ أبي الفيض الإمام أحمد بن محمد بن الصديق المسمى «مسالك الدلالة على مسائل متن الرسالة» وهو عبارة عن تخريج لأحاديث الرسالة كلها ومستخرج من كتاب كبير له يسمى «تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل»[4].

5 ـ أن كثيراً من الشروح التي وردت على الرسالة كانت نثراً إلا أن هناك شروحاً منظومة في قالب شعري كشرح أبي عبد الله محمد بن غازي العثماني المكناسي (ت 919 هـ) وشرح الشيخ أحمد بن مشرف الاحسائي المالكي (ت 285 هـ) وعبد الله بن أحمد بن الحاج الفلاوي السنقيطي[5].

6 ـ أن طائفة من تلك المؤلفات كانت تجنح إلى التعليل لمسائل الرسالة أو ينصب اهتمامها على جمع النظائر من مسائلها وتبويبها كصنع ابن غازي المشار إليه

(1) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد حسنين مخلوف 124، 125.
(2) راجع رسالة الدكتور خالد المذكور ص 239.
(3) الجامع ص 55.
(4) رسالة الدكتور خالد المذكور ص 234، وص 253.
(5) الجامع 62 ـ 64.

في الشروح المنظومة حيث عمد إلى جمع النظائر كمسائل الظن، ومسائل الابطال والاتفاق، وذكر شروط الصيد، وما يؤكل من الهدايا وما لا يؤكل، أو تتبع مصادر المسائل كما في جمعه لنظائر المسائل التي قال فيها مالك بالاستحسان «ولنظائر المسائل التي استعمل فيها الشيخ ابن أبي زيد قياس العكس»[1].

وهذا النمط من التأليف حقيقة يرجع إلى قواعد الفقه وأصوله ـ في نظري ـ كما أن بعضها كان يقتصر إهتمامه على المشهور فقط من مسائل الرسالة كصنيع الشيخ داود بن عمر بن إبراهيم الاسكندري الشاذلي (ت 732 هـ) حيث اقتصر على المشهور مع الإيضاح والبيان له وسمي شرحه «إيضاح المسالك على المشهور من مذهب مالك»[2].

7 ـ أن طائفة من شروح الرسالة مطبوعة ومتداولة وهي:

أ ـ شرح ابن ناجي (قاسم بن عيسى بن ناجي القيرواني (ت 837 هـ) ويعد من أهم الشروح «نظراً لتعرضه للكثير من الفرعيات وبيان أقوال العلماء فيها[3] كما أن من جاءوا بعده من الشراح اعتمدوا عليه وهو مطبوع من شرح زروق في مجلد واحد ويقع في أسفل الصحيفة وكانت طبعته الأولى بمصر سنة 1332 هـ وقد طبعته دار الفكر بلبنان في 1402 هـ ـ 1982 م.

ب ـ شرح زروق (أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق (ت 899 هـ) فقيه وصوفي ويعتبر هذا الشرح من الشروح المعتمدة في المذهب المالكي لاختصاره ولمكانة صاحبه وغزارة علمه وإخلاص نيته[4].

ج ـ شرح أبي الحسن الشاذلي (نور الدين علي بن محمد بن محمد بن محمد ابن يخلف بن جبريل المنوفي المصري المعروف بالشاذلي (ت 936 هـ) وشرحه

---

(1) راجع الجامع ص 62.
(2) راجع رسالة خالد المذكور ص 231.
(3) رسالة خالد المذكور ص 236.
(4) المرجع السابق ص 242.

يسمى «كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن ابي زيد القيرواني» ركز فيه على غير المشهور من المذهب مما تضمنته الرسالة كما أنه تلخيص لشرحين آخرين له على الرسالة «الوسط والكبير» كما يشير هو في مقدمته[1] وعلى هذا الشرح حاشية العدوي علي بن أحمد بن مكرم العدوي المالكي (ت 1189 هـ) وهما مطبوعان في مجلد واحد سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ بمطبعة مصطفى البابي الحلبي.

د ـ شرح النفراوي (أبو العباس ىحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا النفراوي المصري (ت 1125 هـ) ويسمى هذا الشرح «الفواكة الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» وهو يقع في جزأين طبع في مصر طبعات متعددة كما صورته دار الفكر ببيروت بلبنان أخيراً.

هـ ـ شرح جسوس (أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس) (ت 1182 هـ) طبع في فاس.

و ـ شرح الشرنوبي (أبو محمد عبد المجيد الشرنوبي الأزهري (ت 1340 هـ) وشرحه يسمى «تقريب المعاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» وهو مختصر مفيد أراد به صاحبه تقريب معاني الرسالة للطلاب بضبط مبانيها وتجلية معانيها[2].

وإن كانت ثمة كلمة نختم بها الحديث عن شروح الرسالة والمؤلفات التي دارت حولها أن مؤلفيها كانوا بغداديين وقرويين ومصريين مما يكشف عن أهمية الرسالة والدور الذي لعبته في ربط العالم الإسلامي ببعضه فكانت بذلك خير سفير جمع المسلمين على الحقيقة والعلم كما هدفت بصدق إلى خدمة ناشئتهم وإحسان تربيتهم.

---

(1) راجع مقدمة شرح الشرنوبي على الرسالة ص 4 هذا ويذكر العدوي في حاشيته أن لأبي الحسن الشاذلي ستة شروح وليس شرحين فقط ـ راجع حاشية العدوي ص 4 مطبوعة مع شرح الشرنوبي.

(2) راجع رسالة الدكتور خالد المذكور ص 244.

موضوعات الرسالة:

تحتوي الرسالة على العقائد والأحكام الفقهية من عبادات، ومعاملات وجنايات، وقضاء، وشهادة كما تحتوي على السنن، والآداب التي يحسن للمسلم أن يتأدب بها، وقد قصد ابن أبي زيد بذلك جمع كل ما يحتاجه الناشئة وبدأ بالعقيدة؛ لأنها الأساس الذي تبنى عليه الشريعة واتبع بذلك بالأحكام الفقهية ثم ختم حديثه بالآداب فكان بذلك صاحب منهج وطريقة، ومنطق محكم في ترتيبه لبحث المسائل التي تعرض لبحثها في رسالته، وقد بين هو نفسه منهج بحثه ذلك فقال عن رسالته إنها «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها»[1].

هذا وقد كان ابن أبي زيد في عرضه لمسائل العقيدة التي بدأ بها ملتزماً مذهب أهل السنة حيث يقول في قضية خلق القرآن: «وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد»[2].

ويقول عن رؤية الله تعالى يوم القيامة «وأن الله قد أعد الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم»[3].

وكذلك في مسألة مرتكب الكبيرة وزيادة الإيمان ونقصه كان إتجاهه إتجاه الأشاعرة من أهل السنة.

وبعد أن فرغ من الحديث عن العقيدة تحدث عن الأحكام الفقهية، وبدأ ـ في ذلك ـ بنواقض الوضوء ثم الطهارة بأنواعها فالصلاة من حيث أوقاتها واسمائها،

(1) راجع متن الرسالة مطبوع مع شرح النفراوي ص 19 ـ 21. وشرح ابن ناجي ص 8.

(2) المرجع السابق ص 54 ـ خالف في ذلك المعتزلة خلافاً مشهوراً في تاريخ الفرق الإسلامية، وشايعهم في ذلك بعض خلفاء بني العباس، وقد أدت فتنة خلق القرآن التي حمل لواءها المعتزلة إلى محنة مشهورة ألمت بالإمام أحمد بن حنبل الذي سجن وضرب لأنه لا يقول بخلق القرآن.

(3) المرجع السابق ص 79 ـ 81. وهذه القضية أيضاً خالف فيها المعتزلة الذين انكروا رؤية الحق جلت قدرته يوم القيامة.

والآذان والإقامة والإمامة، وختم ذلك بباب جامع الصلاة الذي خصصه لمسائل متفرقة تتصل بالصلاة، ثم تحدث عن سجود القرآن وصلاة السفر، والجمعة، والخوف والعيدين، والخسوف والاستسقاء، وما يفعل بالمحتضر وغسل الميت والصلاة عليه، ثم تحدث عن الصيام والاعتكاف والزكاة والحج والعمرة، والضحايا والذبائح والعقيقة والصيد والختان وما يحرم من الأطعمة والأشربة ثم الجهاد والإيمان والنذور ثم أخذ يتحدث عن النكاح والطلاق، والعدة والنفقة والاستبراء، ومن ثم البيوع وأحكامها والوصايا والتدبير والكتابةَ، والعتق والولاء، والشفعة والهبة والصدقة والوقف وختم ذلك بخاتمة تشتمل على مسائل حسان تتعلق بما سبق من مسائل المعاملات كما تحدث عن الرهن والوديعة واللقطة والغصب ومن ثم طفق يتناول باب الدماء والحدود والقسامة فتحدث عن القصاص والدية وكافة الحدود مفرداً كل واحد منها بالبيان.

جاء ـ بعد ذلك ـ باب الأقضية والشهادات والصلح والضمان والقسمة والوصية والحيازة فالميراث وأحكامه.

وأخيراً تحدث عن الآداب في باب جمل من الفرائض والسنن والرغائب، فتحدث عما هو محرم من المأكولات والمشروبات، وما يجب على المكلف من حق العباد والوالدين وما يجب التخلق به من أخلاق النبي ﷺ، وتناول الفطرة والختان وحلق الشعر واللباس وستر العورة، والطعام والشراب، والسلام والاستئذان والتناجي والقراءة والدعاء وذكر الله والدعاء في السفر، وطرق العلاج والطيرة والنجوم والوسم والرفق بالمملوك ومن ثم تحدث عن الرؤيا والتثاؤب والعطاس واللعب بالنرد والسبق بالخيل والرمي وغير ذلك.

وفي تناول ابن أبي زيد لكل هذه المسائل كان أسلوبه أسلوباً قوياً سلِسًا واضحاً ينبيء عن قدرة لغوية فائقة، ويكشف عن ثبات علمي وذهني نادر.

رحم الله أبا محمد وأجزل له المثوبة على العلم الذي نشره، والفضل الذي أذاعه، والنور الذي سعى به بين العالمين مع تقديم خالص الشكر لدولة تونس

الفتية على اهتمامها ـ من خلال مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ـ بالتراث الإسلامي والسعي إلى كشف كنوزه والاحتفال بذكرى أعلامه.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

أ. د. خليفة بابكر الحسن
رئيس قسم الشريعة الإسلامية
بكلية الشريعة والقانون
بجامعة الإمارات العربية المتحدة